في أزقة المدينة العتيقة الضيقة، يعيش أوروبيون وأمريكيون، جاؤوا إلى المغرب لتعلم العربية أو للقياد بدراسات حول الشباب أو الاستقرار. المثير في حكايات هؤلاء أن بعضهم يفاجأ بأن البلد ليس مكان قفرا، والبعض الآخر يكتشف أن القاعدة لاتعشش بين ظهرانينا، وطرف ثالث يتزوج بائعة «رغايف» ويرحل بها إلى كندا. لنتابع

صورة من موقع مركز التواصل الثقافات بالرباط

قصص أجانب يقطنون مع أسر فقيرة في أحياء شعبية

أجانب تمغربوا

■ الرباط – إكرام بن عائشة ■

على عتبة منزل متواضع في زقاق ضيق بقلب المدينة القديمة للرباط، تجلس سيلي، 20 عاما من دالاس- أمريكا وهي تنظر بعينين خضراوين إلى حركات أطفال تعلو ضحكاتهم المكان وهم يتراقصون على أنغام أغنية «واكا واكا» للفنانة الكولومبية شاكيرا. تقول بكلمات بالدارجة تكاد تكون مفهومة «فاش جيت للمغرب، حسابلي ما فيه لا تلفزة لا راديو لا والو..».

تقضي سيلي، قرابة الثلاثة أشهر، الآن، في ضيافة عائلة مغربية من 4 أفراد.. تواضعها وخفة ظلها جعلاها تنسج علاقات طيبة مع الجيران، الذين أصبحوا ينادونها سلمى.

كل سنة، سيلي، دافيد، إيدا وعدد من الأجانب من جنسيات مختلفة يحطون الرحال في المغرب وبالضبط في المدينة العتيقة بالرباط، فتفتح لهم بعض العائلات المغربية أبواب منازلها التي تطل من واجهاتها أصالة العمران وتخفي في داخلها بساطة العيش. أغلبهم شبان وشابات يأتون لهدفين: تعلم اللغة العربية الفصحى أو الدارجة وزيارة أهم المدن والمآثر التاريخية. تابعين في ذلك لبرامج أكاديمية تقوم بالتنسيق بين بلدهم الأم والمستضيف...

المدة التي يقضونها بيننا في قلب الأحياء الشعبية والأزقة الضيقة تفتح المجال لسرد قصص من يومياتهم والحديث عن مسار تأقلمهم مع نمط عيش يغيب فيه صخب العواصم العالمية التي ارتحلوا منها ليحلوا بـ «مراكش»، كما يسمون المغرب، حاملين أفكار مسبقة، أغلبها تتغير بعد مرور ساعات قلائل على وضع أرجلهم في بلدنا السعيد.

جون كولد: أتحدث دائما مع المحيطين بي من المغاربة بالدارجة، رغم أن كلامي يسيل دموعهم من الضحك. تحمست للمجيء إلى المغرب بعد ثورات الربيع العربي، لأنه آمن مقارنة بمصر التي كانت اختياري الأول».

في أول مرة..

«أول مرة جئت إلى المغرب كنت أظن أنه صحراء» يقول جون، 20 سنة، قادم من واشنطن، بعربية مرتبكة. يضيف بانجليزية سلسة هذه المرّة، وهو يسارع في خطواته منتعلا «بلغة» رباطية، قاصدا محطة القطار المتوجه لمدينة فاس، « كنت مصدوما وفي نفس الآن فرحا حينما وجدت أن المغرب لايختلف كثيرا عن بلدي، فيه من الطرق والبنيات التحتية والتكنولوجيا .. الجمال والبراري لم أجدها إلا حين زيارتي للجنوب».

من الأجانب من يعجب لأمر هذا البلد الذي وهم يتجولون بين شوارعه، ويعيشون بين أناسه، يكتشفون أنه نسخة مصغرة، شبيهة ببلدانهم فيما يتعلق بالتكنولوجيا الحديثة والموضا والوجبات السريعة، خلافا لما كانوا يعتقدون. ومنهم من وجد نصفه الآخر، متخفيا في إحدى دروب الأحياء الشعبية بقارة غير التي ولد فيها، كما هو الحال بالنسبة لكيفن.

«لعام للي فات كان عندنا واحد الكندي سميتو كيفن. أول مرة جا المغرب، ومامشا حتى تزوج بمولات الرغايف» تقول شيماء، بنظرات فرحة وهي توضب غرفة لإحدى الأجنبيات التي ستكون في ضيافتها هذا الشهر. وتضيف بصوت دافئ «كانت فتاة جميلة، أعجب بها فطلبها للزواج وهو يقول بكلمات متلعثمة كان قد تعلمها بالدارجة المغربية: واخا تزوجي بيا؟.. ليذهب بها من حرارة طهي الرغايف إلى صقيع كندا». صقيع يعولان أن تذيبه حرارة الحب بينهما.

مصدر جديد للدخل

الساعة تشير إلى الواحدة بعد الزوال. وقت الغذاء عند لمياء، 45 سنة، ربة بيت وأم لثلاثة أطفال، تستقبل في كل سنة عددا من الأجانب في بيتها المطل على شارع سيدي فاتح بالمدينة القديمة، والذي يعود بناءه لسنوات خلت... كل من قضى مدة في ضيافتها يشهد لها برحابة الصدر وروح الدعابة وكرم الضيافة، حتى أنهم بكثرة تشبتهم بها ينادونها «ماما لاميا».

تقول، بعدما جددت الترحيب بضيفيها القادمين هذه المرة من ألمانيا، حين أنهوا أكل طاجين مغربي من شهيوات لمياء، «كانعاملهم بحال وليداتي وتا واحد ماكايدصر عليهم، حيت كاع أولاد الحومة كانقوليهم : هادو راه ديالي».

الأجانب الذين حلوا بمنزلها هذا الصباح، تابعون لـ «مركز تواصل الثقافات» الكائن مقره في باب العلو، والذي تضع فيه لمياء بانتظام ومنذ سنتين طلبات استقبالها للأجانب في منزلها المكترى. تضيف بعينين ذابلتين وقد تغيرت ملامحها، «بهادشي للي كايعطيوني هاد الأجانب باش عايشين وكانتعاون على دوابر الزمان».

تستقبل مثل هذه المراكز في الشهور الأولى من السنة، عشرات من طلبات العائلات المغربية التي تبتغي استقبال الطلبة الأجانب، تليها زيارة لجنة مختصة تقوم بمعاينة المنزل والغرفة التي سيقطن بها الطالب فإن كانت تستوفي الشروط، تعطى الموافقة، ويمنح للعائلة دخل يومي أقصاه 200 درهم، إذا كان الطالب سيتناول الوجبات مع العائلة وأدناه الـ 100 بدون وجبات. لا يفرض على العائلة توفير طعام خاص، إنما يأكلون من نفس طعامهم.

يجمعون على أنه في الأيام الأولى استعصت عليهم معرفة الأزقة التي سيسلكون. تتذكر «إيدا» شابة في عقدها الثاني، جاءت من هامبرغ، بصوت هادئ وحركات يد عفوية «لم أكن أعرف من أين أخرج للشارع الرئيسي (الجزاء) ولا كيف أعود إلى منزل «ماما لاميا»، جميع الأزقة كانت تتشابه، تهت في أحيان كثيرة...لكني الآن بعدما قضيت أكثر من شهرين أتجول هنا وهناك، أصبحت أعرف جميع الاتجاهات، حتى أنني أصبحت أذهب إلى الحمام الشعبي لوحدي دون أن ترافقني ماما».

في السطح، حيث يقضي معظم الأجانب الوقت، متأملين في منتجات من إبداع أيادي الصناع التقليديين. وضعت لمياء قناديل نحاسية على الحواف راسمة بهم المدخل، وأفرشت الزرابي المزركشة بألوان زاهية لتجذب عين الناظر إليها فتعرف بالذوق المغربي لزوار متعطشين لكل ما هو تقليدي، بديع خارج عن المألوف لديهم.

يعطي كل واحد منهم 200 درهم للمياء كأجر يومي مقابل عنايتها بهم، وتوفيرها للوجبات الثلاث والمبيت.

غير بعيد عن منزل لمياء، في الجهة المقابلة، تدخل 3 طالبات شقراوات يلبسن الجلباب المغربي العصري، إلى منزل حليمة والتي على خلاف جارتها لمياء، تتقاضى 100 درهم في اليوم، كمستحقات للمبيت فقط، فهي تشترط عليهم أن يجلبوا الأكل من الخارج. تجيب بصوت خافت، حين سؤالها عن إمكانية اللقاء بالطالبات اللاتي دخلن منزلها قبل برهة، كأنها تخشى أن يسمعها أحدهم «هادشي رافيه الداخلية، ماعنديش الحق نلاقيك بيهم ولانعاود ليك عليهم». قبل أن تختفي بدون سابق إنذار، وراء باب منزلها الخشبي المزخرف...

ريشارد فريوند: الأمريكي حينما يسمع كلمة مدرسة يعتقد مباشرة بأن الأمر يتعلق بمكان تتكون فيه عناصر القاعدة والإرهابيين لتتدرب فيه على إستعمال السلاح، والحقيقة أن المدرسة هي ببساطة School بالإنجليزية، مكان للتعلم

السيارات تخيط شوارع الرباط وأرى مختلف مظاهر الرفاهية في الأحياء الراقية، مؤخرا اكتشف أن غرفة ضيقة في المدينة القديمة أو حي التقدم يمكن أن يتكدس فيها أكثر من 7 أشخاص وأن هناك من العائلات في المناطق النائية من لا يتوفر على أبسط متطلبات العيش الكريم حتى أن النساء تلدن في منازلهن.. ولا يجد أحد أي حرج في ذلك».

ما إن يحطوا مباشرة رحالهم في المغرب، حتى تبدأ رحلة الأجانب في ملاحظة المفارقات، يعجبون لعدد من المظاهر «الغريبة» التي لم يشهدوا مثلها في بلدانهم، لكن سرعان ما يستأنسون ويقومون بها، خاضعين «لقوانين خلقها المغاربة».

« التشطار في المغرب زوين» تقول كيلي 20 سنة، تستعد بعد أسبوع للعودة إلى مدينة الأنوار باريس، مضيفة بالدارجة وابتسامة جميلة تكشف عن أسنانها الثلجية المتراصة، «المعلمة علماتنا كيفاش نتشاطرو وواحد لمرة ربحت 5 دراهم». تتحدث بفرح حينما قامت بتطبيق ماتعلمته في حصة بإحدى المراكز الخاصة لتعليم اللغة العربية الفصحى والدارجة للأجانب، وتغلبت على البائع في انتقاص 5دراهم من الثمن الأصلي.

بعيون أجنبية

مارك، لم يطفء شمعته الـ 24 بعد، يجلس في الزاوية اليسرى من السطح، يفترش الأرض ويسبح بنظراته ماسحا صفحة السماء كأنما هو فلاح تؤرقه حالة الطقس التي ستنعكس سلبا على محصوله، مطلقا العنان لتفكيره، يقول بنبرة حزينة «في المغرب الكثير من المتناقضات، ففي الوقت الذي ألمح فيه آخر ماركات

المغرب.. ليس اعتباطا

في الأزقة الضيقة للمدينة القديمة، يتعايش السكان مع الأجانب بحكم قرب المنازل والعلاقات التي تربط العائلة المستضيفة بالجيران. كل صباح يلقون عليهم التحية ويدخلون معهم في دردشات، مطلقين عليهم أسماء مغربية. غير أن معظمهم يتساءلون عن السبب الذي سيجعل أجنبيا يأتي إلى المغرب ويقبل العيش تحت سقف واحد مع عائلة ذات عقلية وتقاليد مختلفة عنه؟.

«تعرفت على واحد الكاورية جات المغرب فعطلة وكانت كاتسكن مع خالتي، وبعد مدة عرفت بللي هي جات باش تدرس الأوضاع فالمغرب والاستقرار ديالو» يتحدث عمر، 34 سنة، وهو يرتب ملابس مستعملة يبيعها في زقاق ضيق يتقاطع مع شارع الجزاء. ويردف متأسفا على الأيام التي كان فيها مرشدها السياحي، لا يوجد مكان جميل أو معلمة تاريخية إلا وزارته برفقته» ما إن عرفت أنها لا تستظرفني إلا لتجمع معلومات، تستعرضها على زملائها في الخارج، حتى قطعت علاقتي بها. أنا ماعنديش مع السياسة».

يروي عمر بروية قصته مع «الكاورية» التي قال إنها « كانت تسايره في حماقاته فقط، لمعرفة كيف يعيش الشباب في بلد من العالم الثالث، حيث كانت تؤكد على اللقاء بأكبر عدد من أصدقائه لتعرف ميولاتهم، وتستشف كيف ينظرون إلى الاستقرار بالمغرب؟».

بغينا نهدرو العربية

«أريد تعلم العربية.. فأنا أتحدى نفسي كل سنة لأتعلم لغات جديدة» تقول تيم فام، 27 سنة من مدينة سانديغو. كاليفورنا وهي تقوم بتركيز تام وفي جو هادئ في إحدى المنازل العتيقة، بانجاز واجباتها المنزلية. لغتها العربية مقارنة مع زميلاتها، أحسن. فهي تؤكد رغبتها في التواصل مع المحيطين بها بالعربية، تستغل جميع الفرص لتعويد لسانها على الحديث بسرعة. تقول مازحة» صعب أن أفهم كل الكلمات، لأنكم سريعون في حديثكم» تيم فام، تحرص على عدم التحدث بالإنجليزية إلا إذا صعب عليها أمر إيصال فكرة ما. أما بالنسبة لريشارد، شاب أمريكي في عقده الثالث، فإن إرادته في عدم الانسياق وراء ما يسوق له الإعلام الأمريكي هو ما جعله يكمل دراسته للعربية في المغرب بعد سنتين قضاها في جامعة كيرون تعلم فيها الأبجديات الأولى..

يقول بنبرة حاسمة، «شعبنا مغفل ولا أريد أن أكون كذلك. فالأمريكي حينما يسمع كلمة مدرسة يعتقد مباشرة بأن الأمر يتعلق بمكان تجتمع فيه عناصر القاعدة والإرهابيين ليتدربوا فيه على استعمال السلاح. والحقيقة أن المدرسة هي ببساطة School بالإنجليزية، مكان للتعلم». يضيف بسلاسة « أغلب الناس يحملون في مخيلتهم صورة سلبية عن المسلمين والسبب في ذلك غياب الإرادة في البحث وتعلم اللغة قبل الحكم».

في الجانب الأيسر من مدخل السويقة» يجلس بوب، شاب عشريني من كامبردج، أمام محل لبيع المواد الغذائية، حاملا في يده كتابا خاصا بتعليم الدارجة المغربية للمبتدئين. يقول بلكنة إنجليزية وكلمات عربية، «أحرص دائما على الحديث مع الباعة بالدارجة لأتعلم كلمات جديدة، فرغم أن لكنتي تضحكهم إلا أنهم يطلعونني على الكلمات التي يستعملها شباب اليوم، حتى أكون على علم بالمستجدات دائما. الناس في المغرب طيبون». بوب يتحدث بفخر عن علاقته بالمغرب والمغاربة، التي تقوت كثيرا. فأصبح وإن عاد إلى بريطانيا يحرص على أن يتراسل بشكل شبه يومي مع العائلات التي سبق لها وأن استقبلته ويتحدث بالدارجة مع أصدقائه، ليتحول من التلميذ المتيقظ لاقتناص كلمات بالدارجة إلى الأستاذ النبيه الملقن.